اخبار

سفر المونسنيور فرنسيس پيكيت

الى بلاد ارمينية والعجم ١٦٨١-١٦٨٤

كتبها السيد اتناسيوس سفر العطار السرياني اسقف ماردين ،
مرافق المسافر وترجمانه

نشرها المتوري اسحق ارملة السرياني

٣

١٣ استطراد

وكان بعض المسلمين والارمن يأتون اليّ ويطلبون زيارة المونسنيور . ولما كنتُ ادقّ عليه الباب كان يقول لي اصبر مقدار كذا وكذا وارجع. وهكذا كان يعمل دائماً . وكان كثيرون يرغبون ان يفتقدوه بهدية مثل نبيذ او فواكه . ولكنّه لم يكن يقبل شيئاً من احد . وذات يوم جاء واحد ارمني كان له وجع في أذنيه وخسر مقدار دراهم ولم يُشفَ . وكان هذا الارمني هرطوقيًا . [١٠٣] فلما سمع عن فضائل المونسنيور جاب[1] معه قنينة نبيذ وجاء اليّ فقلت له ماذا تريد ؟ قال اريد ان اتبارك من المونسنيور . قلتُ لماذا اجبت النبيذ ؟ فانه لا يقبل هديّة . فتوسّل اليّ ان اطلب منه حتى يقبلها . فدخلتُ وقلتُ له عن الرجل والهدية وطلبت منه ان يقبلها لخاطري . وادخلته اليه . فجثا على ركبتيه قدّام المونسنيور طالباً البركة فباركه وصلى على رأسه. ثم اشتكى اليه من وجع اذنيه . فقال له الرب يشفيك . ثم طلب صليب

١) أحضر

الذهب الذي كان معلّقاً على صدر المونسنيور فاعطاه اياه واخذه [١٠٤] بامانة وراح ربطه في رأسه ونام . وثاني يوم جابه شاكراً وقال للمونسنيور ان هذه الليلة لم تفارق اذني . ولما رجعت انا الى تبريز بعد سنتين نظرتُ هذا الرجل واول ما أبصرني وقع على يديَّ يبوسهما . فقلت له من تكون ؟ قال اما تعرفني ؟ قلتُ لا - قال انا ذاك الرجل الذى شفى المونسنيور اذنيْ وانا اليوم قاتوليقي اشكر الله .

فلنرجع الآن الى حكايتنا . بعد كم يوم رحنا ثاني مرّة عند مرزا ابرهيم وتغدّينا عنده ورجعنا . اما المونسنيور فعمل ضيافة شريفة وصاح المطران اسهاك واكابر الارمن واضافهم .

١٤ سفر المونسنيور يكيت من تبريز الى اصبهان

[١٠٥] وبعد ما اهتمّ المونسنيور في مصالح السفر اوصاني ان اعمل له تختروانا[1] يحملونه على جملَين مثل الهاهيجا (؟) ولكن اكبر واطول حتى ينام فيه في الدرب . فعملت تختروانا كبيراً مليحاً وغطّيته بجوخ احمر وخرزتُ عليه ثلاثين قرشاً . ثم فتّشت عن جمال واستكريت خمسة عشر جملاً اثنين للتختروان والباقي للاحمال . وعملت ايضاً محافتَين . والمحافة هي صندوقان يحملان على جمل يجلس في كل منهما من كان مريضاً او من لا يقدر يركب . ثم اشتريتُ فرساً آخر واشتريت خيمةً كبيرة بخمسة وعشرين [١٠٦] قرشاً كلها طابان . وعملنا مشكان زينو (مدهص اصل)[2] حتى يقدّس فيه المونسنيور في الدرب . واشتريتُ كل ما نحتاز اليه في سفرنا وثياباً للخادمين . واعطانا حاكم تبريز مكتوباً يسمونه « حُكم » يوصي فيه جميع القرى التي نجوز فيها ان يعطونا حقّ الذخيرة كل يوم اربعين عباسي وهي احد عشر سكوتا . وأرسل معنا المهمندار واحداً من رجاله ليوصلنا الى اصبهان .

وبعد ما مكثنا في تبريز سبعة وعشرين يوماً ارتحلنا الى اصبهان ورافقنا

١) مودجاً

٢) لفظ سرياني يراد به تابوت العهد ، وقد اطلقه الكاتب على المذبح المتنقل

بعض [١٠٧] اصحاب من الارمن . فسافرنا ونزلنا خارج تبريز في بستان حاكم البلد بعيد عنه نحو ميلين . وثاني يوم مكثنا هناك لان التختروان كانوا عملوه قصيراً على الجمل الخلفاني . فرجعت ثاني يوم الى البلد وجبت النجار فوصله وعدّله . وثالث يوم رحلنا ورافقنا ناس كثيرون من التجار الى اصفهان . اما المهمندار الذي بعثه الحاكم فلم يرافقنا بل ارسل معنا واحداً آخر قائلاً انه بعد يومين يلحقنا . وهذا الذي جاء معنا صاحه المونسنيور وقال له : دِر بالك اياك تظلم احداً او تاخذ شيئاً خلاف ما هو مكتوب . [١٠٨] وان ما اعطوك شيئاً فاتركهم ولا تغصبهم . ولكن هذا الخائن كان ينفرق منا ويروح قدامنا فنقول له الى اين انت رائح فيقول اروح اهيئ لكم المكان . وكان يمرّ بالضياع ويرتشي من الاهالي.

ولما قرب المساء قصدنا ضيعةً حتى نترل فلقينا اهلها خارجين امامنا . وانا كنتُ قدّام الكلّ . فظننتُ انهم طلعوا ليستقبلونا. فلمّا قربتُ منهم نظرت الحجارة والعصي في ايديهم مستعدّين للقتال فرفعتُ عليهم التفنكة التي معي حتى اخوّفهم . فلمّا نظروني فعلتُ ذلك اخذوا الحجارة حتى [١٠٩] يرجموني . فلحقني المونسنيور لانه كان قريباً مني . ولما نظرهم على هذا الحال قال لهم ما هو الخبر ؟ قالوا لا تترلوا عندنا . قلتُ لهم لماذا ؟ قالوا لان المهمندار جاء الينا واخذ منا اربعين عباسي حقّ الذخيرة وراح . وانتم الآن جئتم تترلون عندنا ونحن ناس فقراء فما لنا الا ان نقاتلكم . فقال لهم المونسنيور لا تخافوا طيبوا خاطركم لاننا ما نأخذ منكم شيئاً بغير ثمن وان اردتم بيعونا الماء بفلوس . بس[1] اعطونا مكاناً حتى نترل . فلمّا سمعوا كلامه المعقول رموا [١١٠] الحجارة من ايديهم واستحوا. ثم قالوا له ما عندنا مكان يسع احمالك وناسك. قال الاحمال والخدّام يترلون في الخيم وانا اريد مكاناً يكفي لي ولبعض ناسي. فاعطونا بيتاً واسعاً نزلنا فيه . ونزل الخدام والاحمال في الخيم. وبعد ساعة جاء رئيس الضيعة يعتذر من المونسنيور ويقول لا تؤاخذنا بما فعلوا لان قلبهم محروق لسبب ان الحرامية قبل يومين اخذوا دوابّ الضيعة كلها . فقال له المونسنيور

(١) فقط

هل حقيقةً اعطيتم دراهم للمهندار قال نعم [١١١] وهذا تمسكهُ[1] . قال المونسنيور اكتب لي ورقة انكم اعطيتم .

وثاني يوم قمنا من بكرة وحملنا . ولما بعدنا من الضيعة لقينا ناساً راكبين . فقال بعضنا نريد ان نمسك هؤلاء الرجال لانهم ارادوا ان يقاتلونا فمنعهم المونسنيور . ووصلنا ذلك اليوم الى ضيعة كبيرة تُسمَّى ميانا فرأينا سوقها مسكرًا وليس فيها انسان . فحطينا جانب الضيعة ونصبنا الخيم ورحتُ حتى اشتري الاشيا. اللازمة فما لقيتُ احدًا . فسألت بعض النسا. [١١٢] عن السبب فقلن قد هربوا لخوفهم منكم . قلتُ رأي الله عليهم[2] لا يخافوا بل يأتون يبيعونا ويأخذون دراهم . لان هذا الاجي[3] ما هو مثل باقي القصّاد . هذا رجل صالح يخاف الله وما يظلم احدًا . ثم جاء واحد وتقرّى وفتح دكانه وباعنا الذي كان عنده . فلمَّا نظر البقيَّة اني اشتري وادفع دراهم جاؤوا الى السوق وفتحوا دكاكينهم وباعونا رزقهم بالليل . فسألتهم عن المهندار فاراني احدهم المكان النازل فيه فرجعتُ الى الخيم واعلمت [١١٣] المونسنيور بوجود المهندار . فقال لي غدًا باكرًا تقوم وتأخذ معك مسيو كازمو وعازريا وهذا المكتوب وتروح الى بيته تأخذه وتوديه الى القاضي وتدعي عليه بالدراهم التي اخذ من الضياع ولكن بالمعقول بغير ضرر .

وباكرًا اخذت معي المذكورين وثلاثة خدام ورحت الى البيت الذي اروني فدقَّ الخادم الباب فطلع خادمه وقال ما هو ههنا . فنزلت عن الفرس ودخلنا كلنا فوجدتهُ نائمًا في الحوش بغطى فدفنتُ وكشفتُ اللحاف وقلت له صباح الخير . فلمَّا نظرني [١١٤] ارتبط نسانه . فقلت له قم البس ثيابك وتعال معي . فقام ونظر الخدّام وفي ايديهم العصيّ فتوسل اليَّ قائلًا لاجل الله لا تأخذني عند الاجي . فقلتُ البس ولا تخف لانك ما تبصر اكثر من فعلك . فلبس ثيابه واراد ان يركب فنسته وسألته في ايدي الخدّام وركبت انا ورفاقي

---

١) التمسك : الوصل بقبض الدراهم

٢) عبارة تأمين يستعملها الى هذا العهد اهل ماردين بمثابة قسم تأييدًا لمن يخاطبونه فيقولون : « رأي الله أمان الله عليك »

٣) السفير

وأخذناه الى القاضي وسجلنا عليه كل ما اخذ من الضياع جبراً وحصلناه وبخشت قرشين للقاضي فبقي يدعو للاجي . ثم رجعت وحكيت المونسنيور بكل ما جرى فشكرني .

[١١٥] ثم قدّس المونسنيور وجاء القاضي بعد القداس مع ناس الضيعة وجابوا هدية الى المونسنيور وهم يعتذرون ويقولون اننا حسبناك مثل باقي الاجية الذين يجون يظلمونا ويتعدّون علينا . فاغفر لنا لاجل الله . ثم اعطوني الاربعين عبّاسيّة[1] وسقيناهم قهوة ورجعوا راضين مستحين. ولما كان المساء جاء مهندارنا من تبريز فصاحه المونسنيور وحكاه كل ما صار وقال له دِرْ بالك تعمل هكذا . فان كنتَ تعمل هكذا ارجع الى تبريز وانا ما اريد [١١٦] مهندارًا . فحلف له اني ما اركبني من احد شيئاً .

وثاني يوم رحلنا . وكنّا نحتل نصف الليل . وكان المونسنيور يدخل التختروان وينام . وانا دائماً كنتُ اروح جانب التختروان مع الجمّال لعلّه يطلب شيئاً لان الجمّالين ما يفهمون لسانه . وكنا نصل قبل نصف النهار ونَنصب الخيمة والمذبح . وكان المونسنيور يقدّس والبادري ومسيو كازمو يخدمان قداسه . وانا كنت اروح افتّش عن الذخيرة لنا وللدوابّ . ويبقى الخدام كل واحد في شغل . هكذا كان شغلنا دائماً . ويوم الاحد كنا نجتمع تحت الخيمة ونسمع القداس . ولما كنا ننزل في ضيعة [١١٧] كان يقدّس في البيت الذي ينزل فيه . اما باقي الاجية فلما كانوا يجتازون بالقرى كان الناس يهربون امامهم . ولكن لما سمعوا ان المونسنيور لا يظلم احداً لم يعودوا يهربون . بل كان كبار الضيعة يأتون عند المونسنيور ويزورونه ويطيب لهم كلامُهُ .

ولما كنا في مدينة اب بهر[2] تقاتلنا مع عازريا لاني انا كنتُ وكيل المصرف وهو كان يريد يتفاضل عليّ في المصرف . فلما سمع المونسنيور صاحنا

١) العباسية كانت خمس عشرة بارة ، وكل اربع عباسيات كانت تساوي نحو سكوت واحد رومانيّ .

٢) تُدعى اليوم اهار او اهير

اثنينا واخذ احدنا بيده اليمين والآخر بيده الشمال وباوسنا مع بعضنا وهو يبكي ويقول يا اخوتي انا [١١٨] ما اريد ان يكون احد في رفقتي الا بالمحبة. ثم احتضننا واوصانا بالمحبة.

١٥ شهامة انس سفر وشجاعته

ولما كنا راحين ليلةً من الليالي غلب عليّ النوم لاني ما كنت اقدر انام بالنهار لشغلي. وبالليل كنا نرحل. فتركتُ الجمال لانها تمشي مشياً ثقيلاً ورحت مع بعض الخيالة الى قدام حتى بعُدنا عن الجمال ثلاثة اميال ووصلنا الى جانب نهر صغير فقلت لهم انزلوا هنا حتى ننام قليلاً. فنزلنا وكل واحد اخذ فرسه بيده ومشينا. وكان على هذا النهر جسرٌ من خشب وعليه تراب. ثم جازت الجمال وجاز [١١٩] ايضاً جمل التختروان القدامي. وكان الجمّال يسحب جمل التختروان ولكنه لم يسحبه عاجلاً بل عوج الجمل الى الجانب فانعوج التختروان ووقع الجمل الخلفاني في الماء مع نصف التختروان وكان المونسنيور نائماً فيه. وعند وقوع التختروان والجمل سمعتُ حساً[1] قوياً ففقتُ من نومي ورأيت نصف التختروان في الماء. وسمعت المونسنيور يصيحني فرميت روحي في الماء بثيابي وفتحت باب التختروان. فقال لي المونسنيور اين انا؟ قلت له لا تخف تعال الى ظهري. ثم حملته واخرجته خارج النهر وألبسته فروتي [١٢٠] لان ثيابه كانت داخل التختروان من الجمل الساقط وأخرجناه الى خارج واقنا الجمل ايضاً واخرجناه من الماء. وهذا العجب انه مع هذه السقطة العظيمة لم يحدث ضرر لا للجمل ولا للتختروان. وبعد ذلك استدعى المونسنيور الجمالين ليأتوا ولا يخافوا. فجاءوا وحملنا التختروان وركب المونسنيور اما الجمّال الذي كان يسحب الجمل فلم نعد نراه ابداً لانه هرب لخوفه. اما الجمالون فبقوا متحيرين من ان الجمل لم ينكسر. لان الجمل اذا وقع [١٢١] غير ممكن ان يقوم سليماً لضعف عظامه ولاسيما اذا وقع وقعةً مثل هذه تحت التختروان. ونحن لما كنا نحمّل اول ما لم يكن المونسنيور يدخل التختروان

---

1) دَوِيّاً

لينام بل كان له فرسان مسروجان يسحبونهما دائماً فكان يركب ويقول معنا الليتانية بالترتيل ثم يدخل ينام . واذا كنا نحتل نصف الليل لم يكن يركب بل كان يدخل ينام.

١٦ وصول المونسنيور پيكيت الى قوم وكاشان ومرض الفس سفر

وبعد اربعة وثلاثين يوماً وصلنا الى مدينة قوم فوقعت انا مريضاً . فقال لي المونسنيور ادخل في المحافة التي على الجمل لانها لاجل المرضى [١٢٢] فقلت بل اركب فرسي. وبعد يومين وصلنا الى مدينة كاشان واشتد مرضي كثيراً. فاستدعيت المونسنيور وسلمته الدفتر والدراهم التي كنت اجمع من القرى لاجل المصرف . وبقينا ثاني يوم قاعدين ولم يرفع[1] المونسنيور بل انتظر حتى استريح وانا كنت ازداد مرضاً . وبعد يومين حملنا وادخلوني المحافة وكان قبالي من الجانب الآخر البادري ياسينتو لانه كان مريضاً ايضاً . وكان المونسنيور يسوق فرسه ويجيء دائماً قريب الجمل ويسأل عن حالي . واذا حطينا في محل بالنهار كان يجعلني في مكان [١٢٣] مليح ويجيء مع مسيو كازمو يزورني ويجعل عندي خادماً يخدمني . اما الحكيم فلم يقدر يعالجني لاننا كنا راحلين غير مستقرين.

ولما كان اليوم الحادي والاربعون وصلنا قرب اصبهان برحلة ونزلنا في ضيعة في السراي . وقدّس المونسنيور وكان نهار الاحد . فقمت تمشيت وحضرت القداس . وبعد خلوص القداس جئت امامه ليباركني فباركني واقامني وسأل عن حالي فقلت أشكر الله لاني لما نظرت وجهك الشريف واخذتُ بركتك رجعت روحي اليّ . فقال لي رُحْ الى فرشتك استرح ولا تأكل فاكهة ولا تشرب ماء لان ذلك [١٢٤] يضرك . فقلت له يا سيدي ما يشتهي قلبي الا الفاكهة والماء . فقال دِرْ بالك منهما لانهما سمّ المريض . ثم رجعت الى مكاني.

وثاني يوم من بكرة جاء جميع الفرنساويين وغيرهم الى استقبال المونسنيور

---

١) يحمّل

ونزلوا وفرحوا به . اما المهندار فكان راح الى اصبهان منذ ثلاثة ايام ليهيئ لنا مكاناً ويُعلم المهندار الكبير بوصولنا . ثم رجع وقمنا حملنا . فلما نظرت كلّ الناس راكبين خيلهم قلت اسجبوا فرسي حتى اركب . فقال لي المونسنيور انت مريض ابقَ في مكانك . قلتُ بدّي[1] اركب . ثم لبست ثيابي المليحة[2] وركبت فرسي.

١٧ وصول المونسنيور يكيت الى اصبهان واشتداد مرض القس سفر وشفاؤه

ووقت العصر دخلنا الى [١٢٥] اصبهان فانزلونا في بيت صغير بقنا هناك ليلتنا . وثاني يوم اخذونا الى بيت كبير بجوش واسع ونهر ماء جارٍ وبستان . وفيه خمس عشرة حجرة ومطبخ واسطبل فنزلنا . ثم جابوا لنا طنفستين كبيرتين حتى نفرشهما في الديوانخانة واستقرّ كل واحد في حجرته . والحجرة الواحدة خصصها المونسنيور للكنيسة يقدّس فيها كل يوم هو ومسيو كازو . والحجرة التي كانت تحت الكنيسة كان يسكنها المونسنيور وينام فيها . واذا جاء احد يزوره يستقبله [١٢٦] في الديوانخانة . وانا انزلوني في احدى الحجر وبقيت اصحّ شيئاً فشيئاً . وبعد يومين جاء مهندار الشاه ليزور المونسنيور مع باقي ناسه . وبما اني كنت مريضاً كان عاربا يترجم عوضي . ثم سأل المهندار المونسنيور قائلاً : هل انت راضٍ من سفرك ؟ قال انا راضٍ ولكن نصف القرى ما اعطوني حقّ الذخيرة المكتوب عليهم مثل الامر . فقال له لماذا لم تحصّل منهم بالدكوس[3] مثل باقي الاجنبية ؟ قال ما يحق لنا ان نأخذ مال الناس بالجبر . فبقي المهندار حيران من كلامه . وبعد كم يوم اهدى المونسنيور فرسي مع شيء آخر الى المهندار.

ثم ان المونسنيور [١٢٧] امر واحداً فرنجياً تاجراً من مرسيليا كان في

---

١) بودّي اي اريد ٢) الجيدة ٣) قسراً وجبراً

اصبهان حتى يعمل قبوة[1] قاش خدّامه ولي انا ايضاً ولكل ناسه . وحضرنا جميع اشغالنا وقلنا ربما يطلبنا الشاه . واما انا فبعد ما كنت نصحت[2] قليلاً مرضت ثاني مرة ومرض ايضاً مسيو كازمر . وكنّا كلانا نازلين في حجرتين الواحدة قبال الاخرى . وكان المونسنيور يجي، يزورنا ودموعه تجري من عينيه لاجل الحنوّ الذي في قلبه . وبعد كم يوم مات مسيو كازمر ودفناه في جولفة وبقيت انا في مرض شديد . وكان المونسنيور يجي، كل يوم من بكرة يزورني . وبعد [١٢٨] القدّاس ايضاً يجي، يزورني وقبل الغدا وبعد الغدا ايضاً . وكذا قبل العشا وبعد العشا . وكان كل مرة من حنوّه يجسّ نبضي ويحط يده على قلبي فكنت أمسكها وأبوسها وأشتمها وأستنشق منها رائحة كرائحة الفردوس . وكنت أبكي واطلب منه البركة . فكان يباركني ويقول أما تريد ان تموت وتروح حالاً الى الفردوس ؟ فكنت اسكت . فيقول لماذا لا تجاوب ؟ فكنت اقول يا سيدي ما اقبل ان اموت الآن بل اريد ان ارجع الى اهلي واخوتي . ثمّ كان يجلس قبالي على كرسي ويسلّيني بكلامه الطيّب الروحاني [١٢٩] والدموع تجري من عينيه . ثم يودّعني ويرجع . وكان مرضي يشتدّ حتى قاربت الموت . وكان يزورني كل يوم اربع خمس مرّات واحياناً يجي، ومعه الحكيم .

وفي ذات ليلة اشتدّ عليّ المرض فجاء المونسنيور والحكيم واحضر من معجون الياقوت والجواهر (؟) وسقاني اياه بخمر . ودهن الحكيم بطني بدهن ثم غطاني وبعد قليل نمت وكان لي خمس عشرة ليلة ويوم لم اكن انام ولم اذق شيئاً بل كنت اشرب ماء فقط . وبعد ما نمت مقدار ربع ساعة استيقظت ونظرت المونسنيور جالساً قبالي [١٣٠] فسلّاني ثم رجع الى مكانه . وانا ابتدأت انصح يوماً فيوماً حتى نصحتُ بالكلية . وعلمني خدمة القداس وبقيت اخدم القداس مقدار سنة وشهرين حتى جاء القسيسان مسيو ريك ومسيو صنصون من باريس .

وبعض ايام كان يبدأ يلبس البدلة ليقدّس فكان يجي، اليه المهندار ام

١) قباء واراد به الرداء . ٢) تعافيت

ناس آخرون ليزوروه . فكنت اقول لـه عنهم فلم يكن يلتفت لذلـك ولم يكن يغيّر عادته لسببهم اي انه لم يكن يقـدّس بعجلة بل كان يتعوّق دائماً في القداس مقدار ساعة [١٣١] في صلاة الفكر[1] ثم يرجع يكلم الآتين اليه. واذا لم يكن احد يطلبه فكان يسمع قداساً آخر بعد قداسه ثم يرجع الى حجرته ويجثو امام الصليب مقدار ساعة وازيد. ثم يطلع الى البستان ويتمشى قليلاً . ثم يرجع الى حجرته يقرأ او يكتب . ثم يصلي صلاة نصف النهار . ثم يأمر بوضع المائدة . وكان الخـدام واقفين دائماً على باب حجرته حتى اذا احتاج اليّ او الى غيري يهزّ الجرس الصغـير الذي عنده فيجيء اليه الخادم فيأمره بما يريد .

واما انا فبعد خلوص القداس [١٣٢] كنت افطر واركب فرسي وآخـذ معي خادماً وأروح الى السوق اشتري كل ما نحتاج اليه . وكنت اعمل هكذا كل يوم . ولما كنـا نتمشى كان المونسنيور يأمر بان يجتمع كل ناس البيت والخدام في الديوانخانة فيدخل ويقول الليتانية . وبعض الليالي كان يكرز على الخدام بالايطاليـاني وانا كنت افسره بالتركي . ويوم الاحد كان يبعث فرساً مع احد الخدام الى جولفة ويُحضر البـادري سبيريتو اليسوعي فيجيء يتغدى عندنا . وبعد الغدا يدخل الى كنيستنا فيجتمع كل الخدام ويدخل المونسنيور ايضاً يحضر ويبدأ البادري يكرز باللسان الارمني .

١٨ زيارة المونسنيور يكبت لعباس شاه العجم — وصف بلوط الشاه

[١٣٣] وبعد دخولنا الى اصبهان بمدة شهرين او ازيد صار عيد المسلمين . وعمل الشاه (عباس) ضيافة ودعا جميع الاجلية والمونسنيور ايضاً . وارسل اليه خمس افراس مسرجة مزيّنة بالسلاح والآلات الفضية . وجاء الينـا ايضاً جميع الفرنساويين الساكنين في جولفة من الكلوين (؟) وغيرهم وهم راكبون خيولاً مطقّمة مزيّنة ومع كل واحد شاطر اي خادم يمشي قـدام فرسه مثل عـادة البلاد . فركب المونسنيور وركبنا كلنا . واولاً راح المهمندار وبعض ناسه

١) الصلاة العقلية اي التأمل

قدّامنا . ثم ركب اثنان من ناسنا وسحب كل واحد فرساً في يده [١٣٤] مزيناً مطقّماً بالزجارج[1] المرقومة بالذهب . وذلك اكراماً للاجي . لانه لا يقدر احد يسحب فرساً الا قدام الشاه او الاجي . ويسمونه بالتركي يداغ وبالفارسي كوتال . ثم ركبت انا ومشي قدامي شاطران . لانه من عادة الترجمان ان يروح الى قدام بسبب انه لسان سيده . ثم ركب المونسنيور احسن الخيل التي ارسلها الشاه ومشي قدامه ازيد من عشرين خادماً لابسين كلهم ثياباً حريريّة وفي يديهم عصيّ . ونحن كان عندنا ثمانية خدام والباقي كانوا خدام الفرنساويين الذين جاؤا معنا . ثم ركب باقي ناسنا والفرنساويون ايضاً [١٣٥] .

وبهذا الطقس[2] العظيم اخذونا الى سراي الشاه الذي يسمى علي قابي اعني باب علي . وقدام هذا السراي ميدان فسيح اكبر من بياتسا ناونا[3] بثلاث مرات وكذلك عرضه . اما السراي فهو من طرف القبلي وقباله من طرف الشمال حيث تدقّ الساعات . ومن الطرف الشرقي هو الجامع الكبير وقباله من الطرف الغربي مكان ما تدقّ الطبول والزمور والنفيرات وقت الما. ووقت طلوع النهار . ويسمى هذا المكان نوبة خانة . وحوالي هذا المكان كله دكاكين من الوجهين وحواليه ايضاً فندق محفور يابس . وقدام باب السرايا [١٣٦] عدة طوبات[4] موضوعة عن الجانبين . وكان هذا الميدان مكنوساً معزّلا ولم يكن فيه من البائعين والشارين كباقي الايام . وكان الناس جميعهم خارج الخندق واقفين صفوفاً صفوفاً يتفرّجون . وكان ثلاثة افيال مربوطة قدام باب السراي مغطاة بجلول الزركاف وقدام كل واحد لقن ذهب ليشرب ما. . وثلاثة سباع ايضاً مزنجرة وقدام كل واحد لقن ذهب . والى جانبي السراي خيول مربوطة مزيّنة بالسروج الذهبية والرخوت المرصّعة بالجواهر . وكانت ازيد من عشرين فرساً . وهذا السراي هو ملجأ . اي ان كل انسان يعمل

---

١) السروج
٢) الترتيب والنظام
٣) احدى ساحات رومية الحديثة Piazza Navona
٤) مدافع

ذنباً ام يقتل احداً فاذا [١٣٧] هرب الى هذا السراي يخلص.

وقبلما ندخل الميدان نزلنا نحن عن الخيل . اما المونسنيور فدخل راكباً الى نصف الميدان ونزل . ثم دخلنا داخل السراي وجلس المونسنيور بين الاجلية الذين كانوا جالسين في احد المجالس . اما خواص الشاه فبقوا يجون يستدعون الاجلية واحداً واحداً ويدخلونه الى الشاه . ثم اخذوا المونسنيور وادخلوه وانا خلفه ومعنا ثلاثة آخرون وهم الحكيم وعازريا وشاب افرنجي خدم عند المونسنيور في اصبهان. واول دخولنا في الباب الاوسط جاء وزيران من الوزراء واخذا المونسنيور بينهما في الوسط. فلما دخلنا نظرنا حوشاً واسعاً جداً [١٣٨] وفي نصف الحوش بركة واسعة والماء يفور منها . وفي اربع قرانيها اربع خوابي مصوغة من الذهب الاحمر . وحوالي الحوش من اربعة أطرافه جنود واقفة مصطفة صفوفاً صفوفاً كل واحد برتبته وهم لابسون ثياب الزرباب[1] متحزمين بالسيوف حاملين البندقيات على اكتافهم . وفي صدر الحوش ايوان كبير جداً والشاه جالس هناك . ثم ان الوزيرين اخذا المونسنيور حتى وصلنا الى باب الايوان . فجاء وزيران اكبر واخذاه في الوسط ورجع الوزيران الاولان . وانا كنت راكعاً وراءه . اما رفاقنا فلم يتركوهم يجون بل بقوا واقفين في الحوش.

[١٣٩] فدخلنا ورأينا الشاه جالساً تجاهنا في الصدر على صفة أعلى من المجلس بشبر وحوله ازيد من عشرين شاباً بعمر خمس عشرة سنة كلهم اولاد اشراف مزينين بافخر الثياب الذهبية وفي رؤوسهم مناديل منسوجة بالذهب . فأمرنا الوزراء بالسجود فسجدنا وصعدنا درجتين اخريين ونظرنا المجلس مفروشاً بالطنافس الحريرية المنسوجة بالذهب . وجميع الاجلية والسادات جلوساً عن يمين الشاه ويساره . فامرنا الوزراء بالسجود ثانية فسجدنا واخذونا الى قدام الشاه حتى بقي بيننا وبينه [١٤٠] اربعة اشبار لا ازيد. وكان الموسيقيون يطربون ويرتلون فرفع الشاه يده فبطلوا. وابتدأ المونسنيور يتكلم بالايطالياني. ولما فرغ سأل الشاه من الوزير عما يقول . فقال لي الوزير تكلم . ففسرت بالتركي كل ما قاله . وبقي الشاه يسأله عن بعض اشياء مقدار ربع ساعة

١) زي جنود الفرس وهي ثياب ملونة

بكلام معقول وحشمة وانشرح من كلام المونسنيور جداً . واجلسوه عن اليمين بين الاجلية . فلما رأيت ان الشاه اعز المونسنيور ووقره طلبت من الوزير كرسياً حتى يجلس عليه المونسنيور [١٤١] . فقال لي لو قلت لي من أمس لكنت احضر له كرسياً ولكن الآن ما اقدر . فقلت له ان كنت ما تجيب[1] كرسياً فانا اروح اطلب من الشاه . فراح هو وكلم الشاه عن ذلك فامره باحضار كرسي . فقال الوزير لاحد الواقفين فراح جاب كرسياً صغيراً مرتفعاً عن الارض نحو شبر مصنوعاً من ابنوس وزرنيخان اي شريط فضة . فتناولته وجعلته تحت المونسنيور . فلما نظرني باقي الاجلية الحاضرين بقوا يطلعون[2] في بالقدر .

ثم جابوا وضعوا قدام كل واحد صينية ذهب ملآنة من ملبس السكر المصنوع بالمسك والعنبر باجناس كثيرة [١٤٢] . وبعد ذلك جابوا وضعوا المائدة من اطلس مرقوم بالذهب وقدام كل واحد بنكري[3] ذهب ملآن پلاو[4] وغير اطعمة كلها في صحون ذهبية . ثم وضعوا مائدة قدام الشاه عليها صحون من فرفور اعني پرسلاني[5] فيها پلاو غير جنس . وكانوا كلهم ياكلون بيديهم اما المونسنيور فبالملعقة قليلاً قليلاً . وكان الشاه ينظر اليه ويتضحك . وكنت واقفاً جنبه ولم اجلس للغدا . فقال لي الوزير اجلس فلم اجلس .

وبعد ما تغدوا قاموا جميعاً وقمنا وانصرفنا كل واحد الى سرايه [١٤٣] . ولما وصلنا الى سراينا تغدّى عندنا جميع الفرنساويين وخدامهم . وبعد غسل اعطى المونسنيور بخاشيش لخدام الفرنساويين وراحوا الى بيوتهم . ودخل المونسنيور الى حجرته ليصلي كعادته . وكان يعمل هذا الجد غصباً عنه اكراماً لسلطانه . اذ لم يكن يريد هذا الافتخار بل كان يفتش عن الخلاص الساري . اما الافراس التي بعثها لنا الشاه مع خمسة من شطّاره فبعد ما شوفوا قدام المونسنيور رواحاً ومجيئاً انعم عليهم بكم تومن ورجعوا باخيل الى

١) تحضر ٢) يتفرّسون
٣) صحنة ٤) ارزّ
٥) porcelaine وهي صحون صينية

السراي .

[١٤٤] وكان في جولفة خمسة اخوة ارمن يسمون اولاد شهرمان وهم اغنياء قاتوليقيون مع عيالهم يحبون المونسنيور حباً زائداً لاجل فضائله وحلاوة الفاظه . فجاؤا ثاني يوم اليه وفرحوا بالعزّ الذي صار له من الشاه . وكانوا يحبون يتغدون عندنا بعض ايام مع ارمن وغيرهم . ونحن كنا نخبز على طقس بلاد الفرنج . وكان اولاد شهرمان الارمن يطلبون من الخبز ويأخذونه الى بيوتهم كحسب البركة . ثم دعوا المونسنيور الى بيوتهم فرحنا وعملوا له عزّاً عظيماً [١٤٥] وبارك بيتهم .

١٩ الاحتفال يوبيل السنة ١٦٨٣

ولنا في جولفة كنيسة لليسوعيين . فكان اذا راح المونسنيور الى جولفة ليقدس يجتمع جميع الارمن القاتوليقيين ويسمعون قداسه وكرزه . وكان بعضهم يعترفون ويتقدسون[1] . وفي تلك السنة (١٦٨٣) جاء مكتوب من البابا[2] الى المونسنيور في امر الجوبيليو (اليوبيل) اي الغفران . فرحنا الى جولفة وقدس المونسنيور وحضر جميع الارمن القاتوليقيين وبعض الهراطقة . وقرأ البادري اليسوعي مكتوب البابا وجاء جميعهم وتباركوا منه ومن المونسنيور . واوصاهم عن الخير الواجب فعله لاجل هذا الغفران اعني [١٤٦] ان يصوموا ثلاثة ايام ويتصدقوا بما يمكنهم ويزوروا الكنائس الكاثوليكية ويعترفوا ويتقربوا . وبعد القداس رجعنا الى البيت . ثم عملنا جميعنا الواجب الجوبيلي وزار المونسنيور كنائس الرهبان في اصبهان اعني كنائس الكبوجيين والكرمليين والارغسطينيين وتصدق عليهم وعلى الفقراء .

٢٠ وصف مناقب المونسنيور بيكيت وفضائله

وكان المونسنيور بيكيت يروي مثلاً صالحاً بزيادة فضائله : بصومه وصلاته وصدقته ومحبته . فكان صومه ازيد من صوم الناس جميعاً . يصوم الى ما

١) يتناولون القربان الاقدس

٢) اينوشنسيوس الحادي عشر (١٦٧٦-١٦٨٩)

بعد نصف النهار ويقنع بشيء قليل ويتغدى به . ولم يكن يزيد في الوان المآكل . [١٤٧] ووقت النوم كان ياكل لقمتين او ثلاث لقم خبز مع تفاحة مشوية . ويشرب قدح شراب ممزوج . وكان فرحان القلب كأنه اكل خروف حامداً شاكراً . وكانت صلاته من داخل قلبه . فكان اذا اراد ان يصلي يبرك على الارض امام المصلوب في حجرته ويمكث في الصلاة العقلية مقدار نصف ساعة واكثر . وعيناه تهطلان الدموع نازلة على ثيابه كالمطر . وبعد الصلاة العقلية كان ينتصب واقفاً على رجليه ويأخذ الكتاب بيديه ويصلي براس منحنٍ امام المصلوب ويفكر بجموع وينظر مكفوف الى الارض . وبعد الوقوف كان يجثو على الارض [١٤٨] ويبقى جاثياً مدة حتى اني بعض اوقات كنت اكون عنده لما كان الخادم يقلع ثيابه ويسحب جواربه حتى ينام . فكنت ارى ركبتيه كركبة الجمل قد تشدد اللحم وجفّ من كثرة الجثوّ على الارض مع انه كان نحيفاً ضعيفاً قليل الغذاء . ولا شك ان الروح الحالّ فيه كان يساعده ويقوّيه على هذه الصلاة الطويلة . ولم يكن يفعلها جهراً ليأخذ المجد من الناس بل كان داخل مخدعه يغلق الباب ويصلي هذه الصلاة النقيّة بينه وبين ربّه . واذا سألني سائل قائلاً : ان كان المونسنيور يغلق الباب [١٤٩] ويصلي داخل مخدعه فمن يا ترى كان يكشف ويراه ؟ فاجيب ان اغلب الايام لما كان يصلي كان يجيء اليه بعض اكابر من المسلمين او المهندار فيدخلون اليّ ويجلسون عندي . وانا كنت اروح عند المونسنيور حتى اطلب لهم الدستور فكنت ابصر الباب مغلقاً فكنت اميز من شق الباب فاراه جاثياً في الصلاة فاعمل اشارة بالباب بالهدو فكان يجاوب قائلاً : مَن تكون ؟ فكنت اقول عبدك . فيقول اصبر . الآن افتح لك . وبعد ما كان يكمل كان يفتح لي الباب ويكلمني بالمحبة والمعرفة [١٥٠] . فكنت انظر عيونه ملآنة من الدموع . فيسألني ما تريد ؟ فاقول ان الامير فلاناً جاء يزورك . فكان اذا كمّل صلاته يقول أحضره الى الديوان مكان استقبال الزائرين والاصحاب . والا فاذا كان ما كمّل صلاته يقول لي تكلم معه مقدار كذا وكذا ثم يجيء . فكنت ارجع واحكي معهم مقدار ما امرني ثم آخذهم

الى الديوان فيجلسون على الكراسي . وهو كان يلبس فروته السمور[1] ويدخل عليهم فينهضون واقفين له ويتقدمون اليه ويسلّمون عليه . لان عادة اهل العجم في سلامهم [١٥١] ان الصغير اذا كان واقفاً والكبير مجتازاً يسبق الصغير ويعطي السلام للكبير . اما الترك فيفعلون بخلاف ذلك اعني ان المجتاز يسلم على الواقفين . ثم كان المونسنيور يجلس ويحادثهم وانا اترجم بالتركي . وكان يأمرني بالجلوس فلم اكن اجلس . بل اذا كان الزائر نصرانياً كنت اجلس .

ولنرجع الآن الى مقصودنا عن صلاته . فان هذا الرجل الصالح كان دائماً على قرار واحد . فلو قالوا له مثلاً ان الشاه جاء يريد يكلمك فكان يقول يصبر الى ان اكمّل صلاتي . ولو قالوا ان البيت راح يسقط فلم يكن يترك صلاته [١٥٢] . هكذا كانت صلاته ولم يكن يقصرها ابداً لا في درب ولا في مرض ولا في وقت الاستعجال ولا في البرد . بل كانت هي بعينها في البيت وفي الدرب معاً . في السكون والراحة وفي زمان الاستعجال . في العافية وفي تغيير المزاج . هذا ما ذكرنا عن الصوم والصلاة وهو جزء واحد من المائة .

اما عن الصدقة فهو شيء فوق الطبيعة البشرية . لانه لم يقصده انسان بصدقة ويرجع خائباً ابداً . بل كان يعطيه الممكن . ومن جملة صدقاته نحكي واحدة غريبة تحيّر [١٥٣] عقول السامعين وتستوجب الذكر . كان عند المونسنيور خادم اسمه اثناس شابّ عمره عشرون سنة او ازيد وهو قاثوليقي الاعتقاد ارمني . وبعد ما خدم المونسنيور كم شهر خرج وراح بدون دستور . وبعد شهرين ثلاثة سمعنا انه تزوج وارتسم قسيساً . لان الارمن لم يكونوا معتادين ان يرسموا قسيساً ما لم يتزوج . ففي ذات يوم اقبل اثناس المذكور الينا فجاء البواب واعلمني وطلب له دستوراً ليعبر . فقلت خلّه يجي . [١٥٤] فدخل اليّ واجلسته وقلت له سمعنا انك صرت قسيساً . قال نعم . وطلب ان استأذن له من المونسنيور ليدخل يزوره ويقبل يديه . فتركته في اوضتي وقصدت المونسنيور وحكيته . فقال خلّه يدخل . ولما دخل نهض

[1] السمّور حيوان برّي لونه احمر مائل الى السواد . يُتّخذ من جلده فراء ثمينة . وربما أُطلق السمور على جلده كما أطلقه هنا الفرنسي . وقد سبق وصفُهُ .

واقفاً بعد ان علم انه كاهن . فجثا اثناس امامه وقبّل يده. فاقامه المونسنيور وامره بالجلوس على كرسي ولم يذكر له شيئاً عما فعل اعني عن رواحه بغير دستور بل ابتدأ يكرز عليه ويعرّفه درجة الكهنوت وارتفاعها . وكيف يجب ان يسلك فيها [١٥٥] . فقال يا سيدي. رسموني قسيساً ويريدون يرسلوني الى ضيعة . وما لي بدلة حتى اقدّس فاطلب منك ان تعطيني بدلة كيفما كانت . فامرني المونسنيور ان ابعث استدعي اندريا الطباخ الذي كان يحفظ حوائجه . فجاء اندريا وكلّمه بالفرنساوي وطلب منه بدلته المليحة التي كانت مرقومة بقصب من الوجهين وكانت تساوي مائتين غرش واكثر . فجابها فاخذها واعطاها للقسيس اثناس . وبقيت انا واقفاً مبهوتاً في امري متحيّرًا . ثم اعطاه ايضاً مقدار صدقة حتى يشتري [١٥٦] له ما يلزم . واعطاه مقرمة[1] مرقومة بالقصب لاجل غطاء الكاس . ووقت الغدا أجلسه على المائدة بين الكهنة وتغدّى معنا . ثم اخذ البدلة وراح . وبقي كل من يسمع من جماعة الارمن عن هذا الخير العظيم الزائد يتحيّر .

اما صدقاته للباقي وخيراته فلا نقدر نحرّرها لانها مشهورة في الدنيا. لانه لما كان قنصلًا في حلب مدة تسع سنين وازيد عمل خيرًا عظيماً . وفي زمانه عضد اهل حلب . وكان دائماً يتصدق على الفقراء والمحتاجين من جميع طوائف النصارى [١٥٧] ولو كانوا هراطقة . وقد صرف اكثر من عشرة آلاف قرش لاجل طائفة السريان ونصب لهم البطريرك اندراوس[2] القاثوليقي . ورجعوا بواسطته الى احضان الكنيسة المقدسة وهذا الخير يعلو على جميع الخيرات.

اما محبة هذا الرجل البارّ الصالح فكانت كقول السيد المسيح :« احبوا اعداءكم (متى٥ : ٤٤) » هذا[3]. فكان يحب الهرطوقي مثلما يحبّ القاثوليقي. والمحسنين اليه كالمسيئين اليه [١٥٨] . اما محبته للفقراء فكانت ازيد من محبته للذين يكرّمونه واكثر من الاغنياء . فكان في جولفة اسقف ارمني هرطوقي

---

١) منديلًا

٢) هو السيد اغناطيوس اندراوس اخيجان بطريرك السريان الكاثوليك (١٦٦٢–١٦٧٧)

٣) لفظ سرياني يقابل في العربية لفظ الخ

شقيّ اسمه اسطفان يبغض القاتوليقيين جدًّا حتى انه لما كان ينظر قاتوليقيًّا كان يسحب قباعته على عينيه لئلا ينظر اليه . واذا سلّم عليه قاتوليقي كان يغتل وجهه حتى لا يأخذ سلامه . وكان يهجر القاتوليقيين في الكنيسة واحيانًا في بيته ويتكلم عن المونسنيور . ومع هذا جميعه فما كان المونسنيور يتكلم عنه بشيء عاطل ابدًا . بل اذا جاء اليه بعض اصدقاء وحكوه عن [١٥٩] افعال هذا الشقيّ كان يبكي ويصلّي لاجله . ولو كان الجي غيره لعمل معه شرًّا وأدّبه . لكن المونسنيور لم يكن يريد ان يتكلم احد عن هذا الشقي بالعاطل .

ومن فضائله انه كان عنده خدام ارمن من جولفة هرب منهم اثنان واخذا الثياب التي عليهما . وكانا قد تدّينا بعض دراهم منه فهربا من جولفة الى مكان آخر . وبعد زمان رجعا . ولما سمعتُ اردتُ ان ابعث اناسًا لامسكهما واحبسهما فلم يرضَ المونسنيور بل قال لي اتركهما وسامحهما [١٦٠] . فهذا الشيء يفوق الطبيعة البشرية . ولا توجد مثل هذه الفضائل الا عند اناس قديسين كاملين . ولم يكن يطلع خلقه على احد او يتضايق من احد . بل كان اذا عمل احد نقصًا يصيحه ويكلمه بالهدو والسكون وينصحه لئلا يعمل كالاول . واذا احب ان يركب ويزور بعض الاصدقاء كان يدخل اولًا الى حجرته ويجثو امام المصلوب نحو ربع ساعة او اكثر . ونحن نكون حضرنا الخيل والخدّام ونبقى واقفين حتى يخلص . واذا راح لزيارة ديورة الرهبان [١٦١] في اصبهان ام في جولفة فاول ما كان ينزل عن الفرس ويدخل الدير كان يقصد الكنيسة ويجثو امام المذبح نحو ربع ساعة ثم يخرج يتكلم مع الرهبان .

ورحنا يوم خميس الفصح الى دير الكرمليين وجاء من ارمن جولفة ثلاثة عشر رجلًا حتى يغسل المونسنيور ارجلهم فأمرني ان اشتري لهم ثيابًا بيضاء . وعمل المونسنيور الميرون المقدس ثم غسل ارجلهم واضافهم وخدمهم هو بنفسه على المائدة وأحسن اليهم [١٦٢] بالحسنى ورجعنا الى بيتنا . وتاني يوم ارسلني الى الدير فجبت قنينات الميرون .

اما سخاوته فكانت زائدة جداً لانه كان يأمرني دائماً ان اصرف الدراهم في جميع ما يحتاج اليه البيت لئلا يكون شيء ناقص . واكثر الايام كان محبوه الارمن يجون من جولفة ويتغدون عنده كما سبقنا فذكرنا واذا جاء اليه جوعان كان يغديه او عريان كان يكسيه . ويجبر خاطر كل واحد ويرسله

٢١ ضيافة الشاه عباس للمونسنيور بيكيت وعطاية المطران ورفاقه وبطريرك الارمن

وبعد ايام عمل الشاه ايضاً ضيافة [١٦٣] وصاح الالجيسة والمونسنيور معهم الى السراي المذكور . وكان الشاه جالساً في العلّية فوق علي قاپي وهي تشرف على الميدان . وكان الخيل والفيلة والسباع مربوطة كما ذكرنا . فركبنا ورحنا كالسابق ودخلنا واصعدونا الى حيث الشاه . فجلس المونسنيور . واحضروا ثوراً كبيراً واطلقوا عليه احد السباع فلم يُطِق عليه . فاحضروا ثوراً اضعف فوثب عليه السبع ومزّقه ونحن نبصر [١٦٤] . ثم تغدّوا وبعد الغدا رجعنا .

والآن نخبر عن المطران ورفاقه الارمني الذي ذكرناه سابقاً . فكان يكرز ببلد تفليس على الارمن . ولما وصل اجيازار بطرك الارمن الى دير كرسيّهم اجيسازين قريب ايروان راح بعض الارمن واشتكوا للبطرك على المطران ورفاقه انه فرنجي ويكرز علينا . فبعث البطرك اناساً واستدعاه . ولما حضر امر بحلق اكليل رأسه ثم حبسه في مكان مظلم . فلما سمع المونسنيور بذلك بعث مكتوباً الى [١٦٥] البطرك بان يعتق المطران من الحبس . فلما قرأ البطرك المكتوب اخرج المطران ورفاقه واكرمه وجبر خاطره واعطاه اسقفية احد الاماكن . ثم ارسل البطرك هدية الى المونسنيور من تبركات القدس مع مكتوب اعتذار صحبة مطران اسمه خاجيك . فقبل الهدية واكرم المطران .

(لها تابع)